رفاعة رافع الطهطاوي أطروحاته الفكرية في مجال التربية والتعليم واثرها في النهضة العلمية الحديثة

Rifa'a Rafi al-Tahtawi, His Intellectual Theses in the Field of Education and Their Impact on the Modern Scientific Renaissance

ا.م.د: قاسم جباري لطيف زاحم المرشدي A.M.D: Qasim Jabari Latif Zaham Al-Murshidi

المديرية العامة لتربية ذي قار General Directorate of Education in Dhi Qar Governorate

Email:almrshdyqasmjbary@gmail.com

ملخص البحث :

يهدف البحث الى دراسة شخصية العالم والمعلم رفاعة رافع الطهطاوي (1801- 1873) وابرز أطروحاته الفكرية في مجال التربية والتعليم , فهو يعد احد قادة النهضة العلمية في مصر والعالم العربي خلال القرن التاسع عشر , ورائداً من رواد الفكر العربي الحديث , أسهمت أفكاره في رفد مبادئ المعرفة والعلوم المختلفة وأوصلتها الى ميدان السمو والتقدم , واستطاع ان يوظف الأفكار التي اكتسبها من خلال معايشته للحياة الأوربية في بناء المجتمع الإسلامي الحديث بعد ان اتضح له انها لا تتعارض مع روح ومبادئ الإسلام , وقد قدم مشروعاً نهضوياً رائداً استفادت منه الحركة الثقافية والعلمية في الوطن العربي بشكل عام ومصر بشكل خاص , وبني عليه من خلفه من جيل النهضة.

الكلمات المفتاحية : رفاعة الطهطاوي ـ التعليم-التربية-النهضة العلمية-الفكر العربي.

Abstract :

The research aims to study the personality of the world and the teacher Rafa'a Rafie al-Tahtawi (1801-1873) and his most prominent intellectual theses in the field of education. He is one of the leaders of the scientific renaissance in Egypt and the Arab

world during the 19th century and one of the pioneers of modern Arab thought. And he was able to employ the ideas he acquired through his living for European life in building the modern Islamic society after it became clear to him that it did not contradict the spirit and principles of Islam. He presented a pioneering pioneering project that benefited the cultural and scientific movement in the Arab tons in general and Egypt in particular, and built on it from behind from generation Renaissance.

Keywords: Rifa'a al-Tahtawi – Education – Pedagogy – Scientific Renaissance – Arab Thought

المقدمة :

يعد رفاعة رافع الطهطاوي (1801– 1873) رائداً من رواد الفكر العربي الحديث في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والعلمية , وقد كانت أفكاره في مجال التقدم في جوانبه المختلفة ليست حصيلة نظر عقلي وقراءة عميقة في التراث العربي والكتب الفرنسية فحسب بل هي في المقام الأول ثمرة معايشته للحياة الأوربية وفهمه لجوانبها المختلفة وللأسس التي تقوم عليها , وقد استطاع ان يوظف أفكاره هذه في بناء المجتمع العربي الإسلامي الحديث خاصة بعد ان اتضح له أنها لا تتعارض مع روح ومبادئ الإسلام كما يعد الطهطاوي أول كاتب حلل فكرة الأمة المصرية وحاول شرحها وتبريرها استناداً الى اعتبارات أسلامية , وقد ترك عصر التنوير الفرنسي اثراً دائماً في تفكيره وفي التفكير المصري بواسطته , ولم تكن بعض أفكار هذا العصر غريبة على من تربى على تراث الفكر السياسي الإسلامي كالقول بأن الإنسان يحقق نفسه كعضو في المجتمع وبأن المجتمع الصالح هو الذي يهيمن عليه مبدأ العدل , وبأن غاية الحكم خير المحكومين , كما ان هناك العديد من الأفكار التي يمكن تلمسها في كتابات رفاعة الطهطاوي كالقول بأن الشعب يجب عليه ان يشترك في عملية الحكم , وبأن من الواجب تهذيبه من اجل هذه الغاية , كذلك تأكيده بأن الشرائع يجب ان تتغير بتغير الظروف , وبأن ما كان منها صالحاً في زمان او مكان ما قد لا يصلح في زمان او مكان أخر , فضلاً عن تأكيده على فكرة الأمة وبأن محبة الوطن هي أساس الفضائل السياسية , وما يهمنا في بحثنا الموجز هذا هو استكشاف بعض آراؤه وأطروحاته الفكرية في مجال التربية والتعليم وكيفية النهوض والارتقاء بها , فقد اعتبر التربية ضرورة لابد منها لكل إنسان فهي تعد من وجهة نظره طريق التقدم وتربية الإفراد على نحو اجتماعي سليم تؤدي في المحصلة الى رقي شأن الأمة وازدهارها.

تم تقسيم هذا البحث الى اربعة محاور رئيسية اختص الأول منها بتسليط الضوء على ولادة رفاعة الطهطاوي ونشأته وابرز انجازاته , وتناول المحور الثاني أصول الفكر التربوي عند رفاعة الطهطاوي حيث تم دراسة أفكاره وآراءه في مجال التربية والتعليم والاهتمام الذي يوليه بهذا الجانب , وفيما يتعلق بالمحور الثالث فقد تركز الحديث

فيه على الدور الذي يجب ان توليه الدولة في رعاية العلم والعلماء كونهم يمثلون الدعامة الأساسية في تقدمها , الى جانب تأكيده على واجب الدولة برعاية المؤسسات التعليمية وتقديم ما تحتاج اليه بغية النهوض بالمستوى العلمي ودفعه بالمسار الصحيح الذي يخدم توجهات الدولة وأهدافها , فيما اختص الحديث في المحور الرابع على اثر افكار الطهطاوي في النهضة العلمية الحديثة.

تم الاعتماد على عدد من المصادر التي أثرت البحث بمعلومتها ومنها الكتب العربية مثل كتاب (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سيرة رفاعة رافع الطهطاوي) لمؤلفه صالح مجدي , وكتاب (رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث) لمؤلفه محمد عمارة , وكتاب (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث) لمؤلفه فهمي جدعان , وكتب ومؤلفات رفاعة الطهطاوي نفسه مثل (المرشد الأمين للبنات والبنين) و(تخليص الإبريز في تلخيص باريز) , كذلك البحوث المنشورة في المجلات العلمية وفي الصحف العربية مثل صحيفة الشرق الأوسط بعنوان (رفاعة رافع الطهطاوي رائد الإصلاح الحديث) , إضافة الى ذلك ما تم نشره عن رفاعة الطهطاوي على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) حيث تضمنت معلومات ذات فائدة كبيرة .

أولاً : ولادته ونشاءته وابرز انجازاته :

ولد رفعت بدوي رافع الطهطاوي في 15 تشرين الأول عام 1801 في مدينة طهطا أحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر (النجار، 1995، صفحة 56) , من عائلة قديمة توارثت العلوم الدينية (الاصبحي، 2000، صفحة 786) , وكان أجداده من ذوي اليسار وممن تولوا مناصب القضاء في مصر (حوراني، 2004، صفحة 91), اعتنى أبوه بحسن تربيته في صغره رغم مروره بضائقة مالية فرضت عليه التنقل بعائلته من منطقة الى أخرى الى ان استقر به المقام في القاهرة , وفي وسط هذه العائلة أتم الطهطاوي حفظ القران الكريم ودرس النحو واللغة , كما اتم حفظ الكثير من المتون المتداولة في عصره (النجار، 1995، صفحة 56), التحق للدراسة في الجامع الأزهر عام 1817 وتابع الدراسات المعروفة بالمنهاج القديم (بركات، 1994، صفحة 11), فدرس "صحيح البخاري" و"جمع الجوامع" في الأصول و"مشارق الأنوار" في الحديث و"تفسير الجلالين" و"شرح ابن عقيل" (الطهطاوي، الاعمال الكاملة، 1973، صفحة 33) , واستشف من خلال الدراسة صورة العالم الجديد من خلال تأثره بأستاذه الكبير الشيخ حسن العطار احد علماء العصر الكبار وأحد المصريين الذين زاروا معهد بونابرت المصري , وتعرفوا الى شئ من علوم أوربا الجديدة , وقد كان لهذا الأستاذ فضل كبير على رفاعة الطهطاوي ليس من حيث التعلم فقط بل لأنه هو الذي سعى الى تعيينه أماما لأحد فرق الجيش المصري الجديد آنذاك , ومدرساً في الأزهر لمدة قصيرة , كما انه سعى من اجله لدى محمد علي باشا وعينه أماما لأول بعثة رئيسية تم أرسلها الى فرنسا للدراسة عام 1826 (جدعان، 2010، صفحة 120) , وعلى ما يبدو ان انخراط رفاعة الطهطاوي في الجيش قد عزز من انتمائه لمصر , وعزز من مفهوم الوطن في فكره .

ترك كل من هذين الاختبارين تأثيره الكبير على شخصية رفاعة الطهطاوي , لكون الجيش الجديد كان نواة مصر الجديدة , وبقي الطهطاوي معجباً بمنجزات هذا الجيش وفضائله , لكن الملاحظ ان تأثير البعثة الى فرنسا كان اكبر بكثير على شخصيته , فقد تركت الأعوام الخمسة التي قضاها في باريس (1826– 1831) فائدة كبيرة بالنسبة له (حوراني، 2004، صفحة 92) , حيث تجاوز مهمة الواعظ والأمام وبدأ منذ وصول البعثة في دراسة اللغة الفرنسية أسوة ببقية طلاب البعثة واظهر تفوقاً كبيراً في هذا المجال , وأمام هذه المبادرة من قبل الطهطاوي بانتظامه في سلك الدارسين وتفوقه , أصدرت الحكومة المصرية امراً بضمه الى أفراد البعثة بحيث يتخصص في الترجمة كونه مؤهل للنهوض بها أكثر من الآخرين بحكم تفوقه باللغة العربية وثقافته الأزهرية (الطهطاوي، الاعمال الكاملة، 1973، صفحة 40).

وأثناء وجوده في فرنسا طالع رفاعة الطهطاوي العديد من الكتب في التاريخ القديم والفلسفة الإغريقية والميثولوجيا والجغرافيا والرياضيات والمنطق , وقرأ سيرة نابليون , وتعرف الى شئ من الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر حيث قرأ مؤلفات لفولتير وجان جاك روسو ومونتسيكو (حوراني، 2004، صفحة 92).

ترك عصر التنوير الفرنسي أثراً دائماً في تفكيره وفي التفكير المصري من خلاله (عوض، 1969، الصفحات 99 – 100) , فقد استطاع ان يدون آراءه وابرز ملاحظاته ومشاهداته للعالم الحديث والقديم معاً في قضية التقدم في كتابين هما "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" و"مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" (الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز، 2012), واشتهر كتابه تخليص الإبريز شهرة واسعة , وتم ترجمته الى اللغة التركية , وهو ينطوي على عدد من الملاحظات الطريفة والصادقة عن آداب الفرنسي وعاداته , وعلى الرغم من أعجاب الطهطاوي بفرنسا الا انه لم يكن لها أعجابا أعمى , والدليل على ذلك ما وصفهم به , فقد أكد على ان الفرنسيين اقرب الى البخل منه الى الكرم والرجال عندهم عبيد للنساء , ثم عاد مادحاً لهم , واتضح ذلك من خلال قوله : "لقد وجدت فيهم ما يستحق الثناء كالنظافة وحب العمل وتربية الأولاد وحب المعرفة وخاصة معرفة أصل الشيء كذلك المرؤة والإنسانية , ومن طبائعهم أيضا حب التغيير والتبديل في سائر الأمور الخارجية , والثبات على الرأي والوفاء بالوعد وعدم الغدر وقلة الخيانة" (جدعان، 2010، صفحة 121).

من جانب أخر فقد برع الطهطاوي في دراسة حالة التفاوت بين المجتمعات , وبالذات بين مجتمع بلاد الإسلام ومجتمع بلاد الغرب على حد سواء , وأكد بأن هذا التفاوت آت من درجة التفاوت في العلوم والفنون , وحسن الحال وتقليد شريعة من الشرائع والتقدم في النجامة فالبلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها , ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم الطبيعية , غير ان أهل هذه البلاد لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة أبدا , أما البلاد الإسلامية فأنها برعت في العلوم الشرعية والعمل بها , وفي العلوم العقلية , وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها, ولاحظ علماء الإفرنج ان

علماء الإسلام أنما يعرفون شريعتهم ولسانهم فحسب , على الرغم من اعترافهم بأن العلماء المسلمين كانوا أساتذتهم في سائر العلوم وبقدمنا عليهم ومع ان الفضل يعود للمتقدم الا ان واقعة جديدة قد حدثت وزادت من قوة وشوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم ومعرفتهم في الحريات واختراعهم فيها , ولولا ان الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كل شيء بحكم قوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم (جدعان، 2010، صفحة 122) .

وعندما عاد الطهطاوي الى مصر عمل لمدة كمترجم في مدرسة الطب , وبعد ان أمضى عامين في هذا المنصب (الطهطاوي، الاعمال الكاملة، 1973، صفحة 47), عين عام 1836رئيساً لمدرسة اللغات الجديدة "مدرسة الألسن" وكلف بأعداد الطلاب لدخول المدارس المهنية , وبتدريب الموظفين والتراجمة , وفي الوقت نفسه كان يعمل مفتشاً وفاحصاً وعضواً في عدد من اللجان التربوية , ورئيساً لتحرير الجريدة الرسمية "الوقائع المصرية", لكن عمله الأهم كان في الترجمة , ففي عام 1841 الحق بالمدرسة مكتب للترجمة عهدت أليه إدارته , وضم المكتب عدداً من التراجمة تحت أشرافه ومراقبته , واستطاع ان يضع ترجمة لعدد كبير من الكتب معظمها في الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية (حوراني، 2004، صفحة 94) , في حين كانت الترجمات التي اقترحها الطهطاوي واشرف عليها اكبر بكثير ومنها تواريخ للعالم القديم , وللقرون الوسطى , ولملوك فرنسا , ومنها سيرة بطرس الكبير وشارل العاشر , وتاريخ الإمبراطور شارل الخامس , وكذلك كتاب الفلاسفة الإغريق وأيضا كتاب تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم لمونتسيكو (حوراني، 2004، الصفحات 94- 95) , ويبدو ان الطهطاوي اراد من ترجمته لهذا الكتاب ونقله الى العربية ان يجد جواباً للسؤال الذي طرحه ابن خلدون في كتاب المقدمة والتي عمل الطهطاوي على طبعها , والسؤال هو كيف تنهار الحضارات ولماذا؟ وأيضا كيف تبنى الأمم والحضارات ؟ لقد وعى رفاعة الطهطاوي بحدة واقعة انهيار الحضارة الإسلامية , ورأى بأم عينيه الهوة التي باتت تفصل بين امة الإسلام وأمة الإفرنج "الغرب" التي اطلع على حياتها وتقدمها أثناء بعثته الى فرنسا (جدعان، 2010، صفحة 121).

وبعد وفاة محمد علي فقد رفاعة الطهطاوي العطف الذي كان يحضى به في عهده , خاصة بعد تولي الحكم من قبل حفيده الخديوي عباس الأول الذي أوعز الى المجلس المخصوص بإرسال الطهطاوي الى السودان عام 1850 بحجة افتتاح مدرسة فيها (عبده، د- ت، الصفحات 32-33), واعتبر الطهطاوي السنوات الأربع التي قضاها في الخرطوم سنوات نفي بالنسبة له , صرفها في ترجمة مواقع الأفلاك لفنيلون (خلف، 2017، صفحة 658), غير ان تبدل الحكم في مصر بعد وفاة عباس الأول عام 1854 ومجيء الخديوي سعيد , والذي عرف عنه بكونه ذا تفكير حر وميول غربية ساهم بعودة رفاعة الطهطاوي الى مصر (حوراني، 2004، صفحة 95), وأسندت أليه عدة مناصب تربوية , وتولى نظارة المدرسة الحربية التي أنشأت لتخريج ضباط أركان الجيش , كما أنشأت بإشرافه فرقة خاصة لدراسة المحاسبة وقلماً للترجمة , وأصبحت المدرسة الحربية قريبة الشبه بما كانت عليه مدرسة الألسن

(الخوري، 2001، صفحة 17), وفي هذا العهد حقق الطهطاوي عدد من الانجازات من بينها مشروع أحياء التراث العربي الإسلامي في مصر من خلال طبع مجموعة من الكتب على نفقة الحكومة ومنها كتاب تفسير القرآن للفخر الرازي , والمقامات الحريرية , وخزانة الأدب البغدادي (الرافعي، 1948، صفحة 253) , وفي السنوات التي قضاها رفاعة الطهطاوي في ظل حكم الخديوي إسماعيل (1863– 1873) عادت له حيويته , وازدهرت أنشطته , وفتحت أمامه مرة أخرى أبواب العمل في مجالات التربية والتعليم وميدان الترجمة (عوض، 1969، الصفحات 99– 100).

ثانياً: أصول الفكر التربوي عند رفاعة الطهطاوي وأبرز أفكاره في مجال التربية والتعليم:

اهتم رفاعة الطهطاوي بقضية التربية والتعليم اهتماماً علمياً ونظرياَ, فقد درس بالأزهر ودرس به قبل البعثة علوم الازهر بالطريقة المتعارف عليها آنذاك , ثم كان احتكاكه بنظام تربوي وتعليمي مغاير في فرنسا أثناء البعثة بمثابة نقطة البداية في تعرفه على مناهج ونظريات جديدة في التربية , ولما عاد الى مصر تولى وظيفة التدريس في معاهد علمية مختلفة أهمها مدرسة الألسن , وفيما يتعلق بالنظرية التربوية الي عرفها رفاعة الطهطاوي في فرنسا فإنها كانت ثمرة مطالعته الجادة لمؤلفات روسو وفينيلون (حجازي، 1973، صفحة 243), والتربية من وجهة نظره ضرورة للإنسان لا يمكنه ان يستغني عنها , فالإنسان تميز عن سائر المخلوقات بالعقل وهو وسيلة حمايته لنفسه , على عكس الحيوانات التي تمكنها قوتها الجسدية من ان تحمي نفسها , وقد قارن الطهطاوي بين قوة الحيوان الجسدية وقوة الإنسان العقلية بقوله : "ان الحكمة الإلهية منحت الحيوانات الآنسة والوحشية سلاحاً تدافع به عن نفسها , وتسطو على أبناء جنسها وغير جنسها , اما الإنسان فهو مجرد من ذلك ومعرض للمهالك , وقد أوتي بدلاً من القوة الجسدية العقل والقدرة على التعلم واكتساب المهارات وذلك يتم من خلال التربية" (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، الصفحات 51– 53).

ويلحظ من ذلك ان الله سبحانه وتعالى قد اصطفى الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات عندما منحه العقل الذي يمكنه من التعلم واكتساب المهارات والخبرات والتعايش مع أبناء جنسه وكل ذلك يتم من خلال التربية , ويذكر الطهطاوي بصدد ذلك فيقول : " الإنسان خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شئ الا بالتربية والتعليم , فوجب تربيته وتعليمه وإرشاده للمعيشة والتكلم وتعويده على ان يفكر ويتألم , وبهذا فهو محتاج الى مالا يعد ولا يحصى من أدوات المعاناة والتمرين والتجربة والممارسة على مدى الزمن" (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 53), كما تعد التربية ضرورة عامة عند كل ابناء البشر فهم بحاجة دائمة لها ويستطيعون التعلم واكتساب المهارات والخبرات على نحو يمكنهم من التغلب على صعوبات الحياة والإفادة من الطبيعة والكائنات الأخرى لخدمة الإنسان وبصد ذلك يقول الطهطاوي :" لا يقال ان جميع ما خلقه الله انما هو لأجل هذا الانسان من

حيث جسمانيته , بل من حيثية اخرى امتاز بها وهي عقله وعلمه " , وبذلك تظهر اهمية العقل بالنسبة للإنسان , وان من واجبه ان يفيد من قدراته العقلية للتعلم واكتساب المهارات والخبرات والتغلب على صعوبة الحياة (حجازي، 1973، صفحة 244).

وقد اطلق الطهطاوي على القدرة اللغوية والفكرية عند الانسان اصطلاحاً محدداً هو الناطقية وشرحها بقوله:" منح الله سبحانه وتعالى الانسان قوة الكلام وخصه بقوة الفكر والفهم والافهام ليدرك ما في الاشياء من حوله من المشابهة والمباينة ويعرف النسب بين الأشياء الخفية والمعاينة " (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 44), وهذه القدرة على الكلام والفكر مكنت الانسان من ان يصبح قادراً على اقامة التنظيم الاجتماعي الذي هو مصدر تقدمه ورقي حضارته , ووفقاً لذلك فان القدرة اللغوية تعد مقوماً اساسياً لتكوين المجتمع البشري والحضارة الانسانية وفي هذا يقول الطهطاوي:" لو لم يكن الانسان مخلوقاً للتأنس مع اخوانه والاجتماع مع اقرانه ليصبح هيئة اجتماعية وحالة عمران تمدنية , لم يكن لتخصيص الحكمة الالهية له بصفة الناطقية كبير مزية ", فالقدرة اللغوية والفكرية عند الانسان اتاحت له ان يتعامل مع غيره تعاملاً جعل الحضارة الإنسانية تنشأ وتزدهر وتنتقل من بلد لآخر (حجازي، 1973، صفحة 244).

ويتضح لنا من ذلك ان الحضارة لا يمكن ان تقوم الا من خلال التعامل بين الافراد على نحو يؤدي الى تطوير الافكار وتناقلها واكتساب الخبرات وتعلم المعارف وهذا كله مرهون بالتربية والتعليم.

وبهذا فأن تربية الأفراد على نحو اجتماعي سليم يؤدي الى رقي شأن الأمة , وهي ضرورية لكل انسان يستوي فيها الذكور والاناث , والامة التي ترتقي برجالها ونسائها تمضي في طريق التقدم على اساس سليم وفي هذا يقول رفاعة الطهطاوي :" حسن تربية الآحاد ذكوراً وإناثا وانتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعية يعني الأمة بتمامها , فالأمة التي حسنت تربية أبنائها واستعدوا لنفع أوطانهم هي التي تعد امة سعيدة وملة حميدة , والأمة بحسن تربية أولادها لا تخشى ان تأتمنهم على أسرار الوطن , بخلاف سوء التربية المنتشر في امة من الأمم فان فساد أخلاق بنيها يفضي بها الى العدم " (الخوري، 2001، صفحة 29).

كما ميز الطهطاوي بين التربية والتعليم باعتبار ان التعليم جزء من التربية المعنوية , وتنقسم التربية المعنوية في رأيه الى ثلاثة أقسام : الأول يختص بتربية النوع البشري أي تربية الإنسان من حيث هو إنسان يعني تنمية موارده البشرية وحواسه العقلية , والثاني يعني تربية أفراد الإنسان يعني تربية الأمم والملل , والثالث يعني التربية العمومية لكل إنسان في خاصة نفسه , وهي تربية الإنسان الخصوصية , واوضح في شرحه لهذه الجوانب بأن التربية المعنوية تتناول تنمية القدرات والتربية الدينية والاخلاقية والاجتماعية وتتناول التربية العمومية أي التعليم (حجازي، 1973،

صفحة 246), وعرف التربية العمومية او ما اسماه (بالتعليمات العمومية) بأنها تعني ما يتعلمه الذكور والاناث في المكاتب والمدارس وفي سائر مجامع المعارف التي يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين , أي ان التربية العمومية تضم كل مراحل التعليم ويدخل ضمنها التعليم العالي , وبذلك يرى الطهطاوي بالاشتغال ان التعليم الاولي الابتدائي هو المرحلة الاولى من التعليم ويكون فيه اهل المملكة على حد سواء يشترك فيه والانتفاع منه ابناء الاغنياء والفقراء ذكورهم واناثهم وبذلك يعد التعليم الابتدائي للبنين والبنات اساس لتكوين الفرد بغض النظر عن مستقبله الوظيفي او الحرفي علمياً كان او عملياً رفيعاً كان ام بسيطاً , وقد حدد الطهطاوي المحتوى الدراسي للتعليم الابتدائي بتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم واصول الحساب والنحو والهندسة (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 57), وهذه المعارف الاساسية ضرورة لكل ابناء الامة , واضاف لها الطهطاوي بعض التدريبات والمهارات الجسدية والرياضية مثل السباحة والفروسية وانواعها من ركوب الخيل والرمي بالرمح والسيف واشباه ذلك من آلات الحرب , ليتمرن الفرد على وسائل الدفاع عن وطنه والمحاماة عنه وهذه تعد من المنافع العمومية (الكريم، 1938، صفحة 18).

وفيما يتعلق بالتعليم الثانوي والتعليم العالي فأن الطهطاوي يرى بان الدولة يكون من واجبها ان تختار تلاميذها ممن عندهم استعداد لذلك , فالتعليم الابتدائي ينبغي ان يكون لكل الأفراد من الذكور والإناث , لكن القدرات الفردية تحدد اتجاه تعليم التلميذ بعد المرحلة الاولية الابتدائية ومن واجب الدولة ان تتعرف على استعداد كل تلميذ , فأن كان حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعياً , فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيؤه لها (الخوري، 2001، صفحة 29), ومن يمتلك هذا الاستعداد فمكانه التعليم الثانوي , اما اذا لاحظ المربي ان التلميذ بخلاف ذلك من كل وجه , علم انه لم يخلق لذلك , فأن رأى ان عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعداً لها قابلاً عليها , وهي صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه فليمكنه منها , وهذا كله يحصل بعد تعلم المعارف واكتسابها في المرحلة الابتدائية (الجبار، 1971، الصفحات 14 – 15).

ويفهم من ذلك ان رفاعة الطهطاوي قسم التلاميذ بعد إتمامهم مرحلة التعليم الابتدائي الى مجموعتين احدهما بإمكانهم الالتحاق بالتعليم الثانوي والمجموعة الثانية بإمكانهم اختيار صنعة معينة والالتحاق بها حسب رغبتهم , وينبغي على الدولة ان توجه كل فرد من هؤلاء بالاتجاه الذي يرغب به وفقاً لاستعداده وقدراته.

ظل رفاعة الطهطاوي في أطار الفكرة السائدة عند مفكري عصره في أوربا بربط مراحل التعليم بالطبقات الاجتماعية فلا يرقى الى التعليم العالي الا أبناء الطبقة العليا او من هم قريبون من الطبقة العليا , وفصل في ذلك بأن التعليمات الأولية والمعارف العمومية يجب ان تعم جميع أولاد الأهالي فقيرهم وغنيهم , بحيث يكون التعليم الابتدائي متاحاً لكل أبناء الأمة ذكوراً وإناثا , اثرياء او فقراء , لكن التعليم الثانوي لا يمكن ان يكون بنفس درجة الانتشار , ومع ذلك

ينبغي على الدولة ان تجعله متاحاً لأكبر عدد ممكن ممن اكملوا التعليم الابتدائي , وفيما يخص رايه في التعليم العالي فأنه يختلف عن المراحل السابقة , فالتعليم العالي ينبغي ان يكون مقصوراً على الصفوة الاجتماعية التي اتيح لها من الثروة ما يمكنها من ذلك (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 59).

وفيما يتعلق بالتعليم العام للبنات فقد اكد رفاعة الطهطاوي على ضرورة انشاء مدارس لتعليم البنات اسوة بالبنين مشيراً الى ان تعليم البنات لا ضرر فيه بل هو مفيد للمجتمع (ناصر، 2023، الصفحات 180 – 182) , لأنه يمكن المرأة من اداء وظائفها المختلفة وجائز من الناحية الإسلامية لوجود أحاديث كثيرة تحث على التعليم واهميته (خلف، 2017، صفحة 660) , والطهطاوي معجب بفكرة الزام الدولة تعليم البنين والبنات , والزام الاباء بالعمل على ذلك (الخوري، 2001، صفحة 30) , وهو بذلك اثبت بخبرة دول اوربا وامريكا وبالأدلة النقلية فائدة تعليم البنات ومشروعية ذلك من الناحية الدينية (سلمي، 2019، صفحة 7).

ومن جانب آخر أكد الطهطاوي على اهمية التربية الدينية , واوضح في مواقع متعددة اهمية الدين في بناء الحضارة مشيراً الى ان الدين الاسلامي اتى بمجموعة من الاصول والاحكام اتاحت الازدهار الحضاري , واسهم في تمدن بلاد الدنيا , لكون التمدن يقوم على اسس متعددة من اهمها التمسك بالشرع وممارسة العلوم والمعارف , والطهطاوي مقتنع بأن التطور الحضاري لا يمكن ان يقوم بالتخلي عن الدين , فالإسلام اساس من اسس التربية والتمسك به مظهر من مظاهر التمدن يميز الجماعات المتمدنة عن الجماعات المتخلفة (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، الصفحات 60– 61), كذلك اكد على اهمية التربية السياسية للمواطنين في الدولة المدنية واعتبرها ركناً اساسياً من اركان التعليم لا يقل عن اهمية الدين مشيراً الى انه لا بد من وجود وعي سياسي عند الافراد في الدولة الحديثة , وجعل للتثقيف السياسي مكانة مماثلة للتثقيف الديني , ولهذا فقد طالب بان يكون في كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد إتمام تعلم القرآن الكريم والقصائد ومبادئ التربية مبادئ الأمور السياسية والإدارية ويوقفهم على نتائجها , ويرى الطهطاوي بان التثقيف السياسي يهدف الى تعريف المواطنين في سن مبكرة بحقوقهم وواجباتهم بالنسبة لأملاكهم ومنافعهم وما لهم وما عليهم محافظة على حقوقهم ودفعاً للتعدي عليها (الطهطاوي، مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية، 2012، الصفحات 233– 234).

اما من حيث مناهج التعليم فان الطهطاوي يؤكد على وجوب أتباع طريق البساطة حتى يسهل على التلاميذ الفهم , وينبغي على المعلم ان يتبع ابسط واقرب الطرق وأسهلها للتعلم , كما ينبغي عليه ان يكون متأنيا غير مبادر للاستعجال بالعقوبة , ولا يؤاخذ احداً بأول ذنب يصدر , ويجب التلطف بالتلاميذ , وبتألف قلوب الطالبين , وان يأذن في بعض الأوقات للمتعلمين باللعب ويكون لعباً جميلاً غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 61) .

ثالثاً : دور الدولة في رعاية العلم والعلماء والاهتمام بالمؤسسات التعليمية:

ان اقتناع رفاعة الطهطاوي بأهمية العلم في بناء الحضارة وتقدم الأمم جعله يؤكد على واجب الدولة في رعاية العلم والنهوض به وتقدير العلماء , ومن خلال دراسة تاريخ معظم الدول سوى بالنسبة لبلاد فارس واليونان ومصر في العصر القديم , تتضح أهمية العلم في استمرار مجد تلك الشعوب وتقدمها , ويفسر رفاعة الطهطاوي ذلك بقوله : " ان سبب تقدم تلك البلدان راجع لتعظيمهم للعلوم والحكمة , وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه , حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء , فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة في هذه العلوم بأسرها فما أضيع دولة قل علمائها وحكمائها وفسدت مزارعها وكسدت منافعها , ولم تجد من يحييها ولا من يحيي بتحيات العلوم معالمها ونواحيها " (الطهطاوي، مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية، 2012، صفحة 247) , وأوضح بأن رعاية الدولة للعلم يجب ان لا تقتصر على جانب دون الأخر من فروع المعرفة , ومن واجبها ان تقدر العلماء المختصين في كل فروع العلم الحديث كعلم الطب والهندسة والرياضيات والفلك والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ وعلوم الإدارة والاقتصاد وكل ما له مدخل أو صلة في فن أو صناعة , فأن أهله يجب إكرامهم من أهل الدولة والوطن , وكذلك يجب إسداء المعروف لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية , لذلك فواجب الدولة ان تشجع المشتغلين بالعلوم والآداب على نحو يجعل تنافسهم مفيداً لتقدم العلم وسمو الدولة (حجازي، 1973، صفحة 260).

كما أكد الطهطاوي على اهمية التشجيع والمكافأة لأنها تسهم بشكل مباشر في خلق روح المنافسة الشريفة بين الافراد , ولهذا فهو يرى بأن من واجب الدولة تشجيع العلم وتقدير القائمين بالبحث العلمي والتأليف , وفي ذلك اعترافاً منها بضرورة العلم واهميته في بناء الحضارة (الطهطاوي، المرشد الامين للبنات والبنين، 2012، صفحة 80), ومن جانب اخر الزم الدولة بواجبها تجاه البحث العلمي والتأليف في مجالاته المختلفة , وهو الاعتراف لهم بحرية التأليف والنشر وتشجيعهم على ذلك , فحرية النشر العلمي تعد احد أركان التقدم كونها تسمح بانطلاق الأفكار وتحقيق التقدم العلمي (الشيال، 2019، الصفحات 61-64) , وهو بصدد ذلك يقول :" ومما أعان على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والادبية والسياسية , والتوسع في حرية ذلك بنشره طبعاً وتمثيلاً " (حجازي، 1973، صفحة 260) .

ويتضح لنا من ذلك ان من واجب الدولة بغية النهوض بالمستوى العلمي تشجيع العلماء والكتاب والمؤلفين والمربين وتقديم الدعم اللازم لهم وبما يلبي طموحاتهم في سبيل تشجيعهم على مواصلة انجازاتهم العلمية وتقديم العطاء المتميز من خلال تأليف الكتب وتقديم الابحاث العلمية الرصينة , والتي من شأنها تحقيق التقدم والازدهار في مختلف مجالات المعرفة , وبما يسهم في نجاح الدولة في تحقيق اهدافها وخططها المرسومة.

رابعا: اثر الفكر التربوي في النهضة العلمية الحديثة :

ركز رفاعة الطهطاوي في مشروعه الاصلاحي على التعليم باعتباره احد اعمدة النهضة العلمية فهو الحافظ لصلاح المؤمن في دينه ودنياه , وهذا التعليم كان السر وراء نهضة الغرب[i] , ولا شك ان قناعة الطهطاوي كانت واضحة بأن التربية هي اساس كل حضارة وكل تقدم ولا يمكن للحضارة في أي بلد ان تزدهر وتتقدم الا بالعلم , وهذا ما هو واضح للعيان في تاريخ البلدان في العصور القديمة حيث ذكر الطهطاوي بأن استمرار مجدها سببه تعظيمها للعلوم والحكمة وتمكين من يشتغل بهما من خلال تشجيعه وتقديم الدعم له ورعاية جانبه[ii] .

ويؤكد رفاعة الطهطاوي في اطروحاته الفكرية على حقيقة هامة بأن الامة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات احوالها يتحقق فيها ايضا التقدم والتمدن على وجه تكون به اهلا للحصول على حريتها بخلاف الامة القاصرة للتربية فان تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها[iii] ومن ذلك يتبين ان التربية شرط اساسي وضروري قبل ان يتجه المجتمع الى طلب التحضر والتمدن , فترسيخ اداب المواطنة وحب الانتماء والاعتزاز بالهوية سابق على كل تقدم , واذا تحققت هذه الآداب وترسخت في نفوس افراد المجتمع , سيصبح النهوض والتطور اكثر يسرا وسهولة[iv] , اذن التربية تعد ضرورة ملحة للبشر بممارسة سنة الحياة والعيش واكتساب الخبرات والمهارات , وهي ترتبط بالتمدن ارتباطا جدليا فهي من جهة تؤهل الامة للوصول الى التقدم , ومن جهة اخرى فالتعليم ركن من اركان التمدن , لذلك تندرج التربية في مسار الفكر الوطني وتصبح اساس الانتفاع بأبناء الوطن ومن خلالها يتمكنوا من بناء مجتمعات متحضرة قائمة على اسس متينة[v].

وفي حديثه عن اهمية العلم اشار رفاعة الطهطاوي الى حاجة المجتمع العربي الى نوعية من العلماء والمختصين من شأنها ان تحقق النهوض بالعلوم الحديثة , موضحا بأن العلماء في فرنسا ليسوا هم رجال الدين , وفقة الشريعة ليس هو العلم الذي يصنع الحضارة ويبني العمران وان ما يطلق عليه اسم العلماء هو من تكون له معرفة في العلوم العقلية والاكتشافات العلمية[vi] , ويذهب الطهطاوي الى ابعد من ذلك بدعوة المسلمين الى ضرورة الاتصال بأوروبا طالما كان الدافع منه طلب العلم والمعرفة لتزويد بلدانهم بأسباب النهوض والتقدم , ودعا الى ضرورة استيعاب كل فروع المعرفة ما عدا تلك التي تتناول اشياء تتعارض مع ما جاءت به الكتب المقدسة والتي تتعارض مع القيم الخلقية ومبادئ الشريعة الاسلامية[vii]

ولا نجانب الحقيقة اذا قلنا انه لا نهضة علمية حديثة بدون تربية وتعليم وتوضح ذلك كون اغلب رواد ودعاة الاصلاح في العالم العربي الاسلامي كانت لهم مواقف ووجهات نظر حول تربية الفرد والمجتمع واستنتجوا جميعهم سواء بطريقة

مباشرة او غير مباشرة ان التربية شرط اساس لتحقيق التحضر والنهوض العلمي وهذا ما حاول رفاعة الطهطاوي الاخذ به لأجل تحقيق النهوض بالمجتمع العربي واصلاحه كي يصبح في مصاف المجتمعات المتقدمة.

الخـــاتـــمة:

توصلنا من خلال دراستنا لشخصية رفاعة رافع الطهطاوي الى مجموعة من الاستنتاجات من بينها:

1ـ اتضح لنا من خلال الدراسة ان رفاعة الطهطاوي على الرغم من تعرضه لصدمة حضارية من خلال بعثته الى اوربا التي استمرت اكثر من اربع سنوات الا انه ظل على قناعة تامة بقيمه وعقيدته , ولم تفتنه او تغيره الحداثة الغربية , كما حدث ولا يزال يحدث مع البعض حتى يومنا هذا , فنراه على العكس من ذلك يتبع منهجاً دقيقاً للغاية للحفاظ على العقيدة الإسلامية من ناحية وإدخال التنوير والحداثة من ناحية أخرى , دون الإخلال بالهوية العربية الإسلامية , اي اخذ المفيد من العلوم الذي لا يتعارض مع روح ومبادئ الدين الإسلامي , والذي له ردود فعل ايجابية على سمو وتقدم الحضارة العربية.

2ـ تأكد لنا ان الأفكار التي جاء بها رفاعة الطهطاوي في كتبه وأطروحاته , والتي كانت انعكاساً لرحلته الى أوربا , وتأثره بالتطورات الحاصلة هناك , قد أوجدت صداها وأثرها العميق في تأصيل قيم الحياة الحديثة في مصر والعالم العربي الحديث.

3ـ ثبت لنا من خلال الدراسة ان الغاية الأساسية والهدف الأسمى للتربية ينبغي ان لا يكون مجرد حشد عقل الطالب بكمية من المعارف فحسب , بل يجب ان يكون دافعها تكوين شخصية الفرد من خلال تحميل التلاميذ على تقدير أهمية الصحة الجسدية والعائلة وواجباتها والصداقة , وكذلك تنمية دافع حب الوطن , الذي هو الدافع الأكبر والاهم في بناء مجتمع متمدن ومتحضر في نفس الوقت.

4ـ تبين لنا من خلال الدراسة بأن هناك دعوة واضحة الى ضرورة تطبيق مبدأ العدل والمساواة بين ابناء المجتمع الواحد بعيداً عن المعتقد او الجنس او الغنى والفقر وفي مختلف مجالات الحياة ومنها موضوع بحثنا التربية والتعليم , بحيث يكون التعليم لكل افراد المجتمع بغض النظر عن انتمائهم او جنسهم او مستوياتهم المعيشية , لان ذلك من شأنه تقوية الروابط بين ابناء المجتمع الواحد وتحقيق النفع للجميع , ومن شأنه تحقيق التقدم في كافة الميادين , على عكس التمايز الطبقي والمذهبي الذي من شأنه ايجاد الفرقة والنزاع والتفكك في المجتمع.

ونخلص من ذلك الى القول ان رفاعة رافع الطهطاوي قدم مشروعاً نهضوياً رائداً واثار متعددة لا مجال لحصرها في هذا البحث الموجز , وقد استفادت من أفكاره الحركة الثقافية والعلمية في مصر والعالم العربي اجمع , وهو يعد بالفعل المؤسس الحقيقي لحركة التنوير والإصلاح وقد بنى عليه من خلفه من جيل النهضة ولا تزال أفكاره حتى اليوم

بالإمكان ان تكون محل للدراسة والتطبيق في مجالات التربية والتعليم وعلى مختلف المستويات.

المراجع:

1. ابراهيم الجبار. (1971). تاريخ التعليم الحديث في مصر. القاهرة.
2. احمد الاصبحي. (2000). تطور الفكر السياسي رواده اتجاهاته اشكاله. عمان: دار البشير.
3. احمد داخل ناصر. (8 كانون الاول, 2023). بواكير النهضة في الفكر الليبرالي العربي. اداب البصرة، الصفحات 180- 182.
4. احمد عزت عبد الكريم. (1938). تاريخ التعليم في عصر محمد علي. القاهرة: النهضة المصرية.
5. البرت حوراني. (2004). الفكر العربي في عصر النهضة1798- 1939. (كريم عزقول، المترجمون) بيروت: دار النهار.
6. جلال سلمي. (2019). رؤية التيار الليبرالي المصري للاحكام الدينية. سورية: مركز حرمون للدراسات المعاصرة.
7. جمال الدين الشيال. (2019). رفاعة الطهطاوي زعيم المهضة الفكرية في عصر محمد علي. القاهرة: مؤسسة هنداوي.
8. حسين فوزي النجار. (1995). رفاعة الطهطاوي رائد فكر وامام نهضة. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
9. رفاعة الطهطاوي. (1973). الاعمال الكاملة. (محمد عمارة، المحرر) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
10. رفاعة الطهطاوي. (2012). المرشد الامين للبنات والبنين. (احمد ابو زيد، المحرر) بيروت: دار الكتاب العربي.
11. رفاعة الطهطاوي. (2012). تخليص الابريز في تلخيص باريز. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
12. رفاعة الطهطاوي. (2012). مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية. القاهرة: مؤسسة هنداوي.

13. سليم بركات. (1994). دراسات في الفكر العربي الحديث والمعاصر. دمشق: جامعة دمشق.

14. شحادة الخوري. (1 كانون الثاني, 2001). رفاعة رافع الطهطاوي احد بناة النهضة العربية الحديثة. (علي عقله عرسان، المحرر) التراث العربي، الصفحات 17- 18.

15. عبد الرحمن الرافعي. (1948). عصر اسماعيل. القاهرة: النهضة العربية.

16. علي ابراهيم عبده. (د- ت). مصر وافريقية في العصر الحديث. القاهرة: دار العلم.

17. فهمي جدعان. (2010). اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث. بيروت: الشبكة العربية للابحاث.

18. لويس عوض. (1969). تاريخ الفكر المصري الحديث (الإصدار ج2). القاهرة: دار الهلال.

19. محمود فهمي حجازي. (نيسان - حزيران, 1973). اصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي. عالم الفكر، الصفحات 243- 244.

20. وفاء خالد خلف. (2017). جهود الخديوي اسماعيل التعليمية في مصر والسودان 1863- 1879. كلية التربية- الجامعة المستنصرية، الصفحات 658- 659.